التكوين(١)

حين أتحدث عن التكوين أرجع إلى الماضى البعيد منذ كنت طفلاً أتأمل مظاهر الوجود فى روعة واندهاش ، ولكن هل أستطيع أن أكون ذاكراً لهذه الأصداء البعيدة بحيث لاأتزيد أوْ أقتضب ، إن الإنسان ليتحدث عن الأمس القريب فلايستطيع أن يسجل أحداثه على وجه التحديد، فكيف بالماضى البعيد؟ ثم إلى أى مدى يقف زمان التكوين وفى كل لحظة تجد يضيف المرء إلى كيانه مالم يحط علماً به من قبل؟ أفيمتد التكوين إذاً إلى نهاية الحياة؟ أم أن هناك اصطلاحاً عرفياً بأن التكوين هو مايؤسس اللبنات القوية فى الدور الأول من المنزل إذا قدر للمنزل أن يرتفع إلي عدة أدوار؟ خيرلى أن أسترسل مع ذكرياتى دون تحديد، فإذا تحدثت عن اليوم فهو ثمرة الأمس، والبذرة تأتى بالثمرة، وإذن فلاانفصال.

حين نشأت فى القرية الصغيرة بمحافظة الدقهلية (الكفر الجديد) كان كل شىء فيها يتعلق بأريج الإيمان، فالمسجد هو المكان الجامع، وشيخ المسجد صاحب القدوة والامتثال، والمناسبات الدينية كالهجرة والمولد، والإسراء، ورمضان ترسل البسمات الوضيئة فى الوجوه الراضية، كانت القرية الفضيلة والحب والتراحم إذْ لاتباع فيها الفاكهة والخضرات والألبان، بل تهدى إهداءً لكل طالب، والفتاة هى بيضة الخِدْر لايستطيع أحد أقربائها أن يبادلها الحديث فى الطريق، أما الآن فقد انتشر الفيديو، وتجمع حوله الجيران يرون ويسمعون مايفزع، ونشز الولد على أبيه وجاهرت

(١) لكل كتاب خاتمة تشير إلى أهم مافى الكتاب، وقد جعلت هذه المقالة شبيهة بالخاتمة، فإنى كتبتها تلبية لطلب مجلة الهلال الغراء حيث نشرتها تحت عنوان (التكوين) وهو موضوع يتحدث فيه كل مفكر عن خيوط من حياته! وفيها إشارات إلى مواقف سجلت فيما قبل هذه الصفحات.

الزوجة صاحبها بالتمرد، واختفت البسمة المشرقة من الوجوه القانعة ليسيطر جدول الضرب بماديته الصماء.

فى ذلك الزمن البعيد ، وأنا فى سن الخامسة ، كنت أفطن إلى صرير الباب قبيل الفجر، فأعلم أن والدى قد تأهب للذهاب للمسجد،وأبصر والدتى تقوم تتوضأ وتصلى، فأقول لها أريد أن أصنع ماتصنعين فتقول: كلا، أنت ولد، فاذهب مع أبيك، ولاأنسى فرحتى حين وجدت المسجد الريفى آهلاً، والصغار مثلى يصحبون آباءهم، وصوت القرآن يرتل فى خشوع، فإذا انتهت الصلاة رجع والدى مع نفر من أصحابه ليجلسوا فى فرجة المنزل يتحدثون حتى مشرق الصبح، ولم أنس أيضاً أن والدى اصطحب ذات صباح شيخاً مهيباً، أخذ يخاطبه فى إجلال، وحين جاء إلي المنزل لم يجلس معه فى الغذاء، بل اصطحبه إلى حجرة الضيوف هكذا كانت تسمى، ولم أفهم سر هذا الاحتفاء ، فقلت لوالدتى من القادم؟ فقالت فى فرحة، واعظ المركز يابنى، وكان الرجل مهيباً بلحيته البيضاء ، وعمامته العالية، ومسبحته التى لاتنقطع دررها بين أصابعه، وقفطانه اللامع، ومافوق القفطان من جبة وعباءة وشال!! وعلمت بعد حين أنه سيقضى بين متنازعين ويصدر الحكم فيقع موقع القبول بدون خلاف، إذ هو القاضى العرفى بالريف الذى يعلو صوته على قضاء المحكمة نفسها، وتم الصلح عن تراض فتعانق الخصوم. ورأى أبى حيرتى فيما أرى وأسمع، فقال لى، ستدخل الأزهر إن شاء الله يابنى،وعليك أن تجتهد لتكون مثل هذا الرجل بإذن الله، لقد رأيت لك رؤيا صالحة، والله معك!

كان الأزهر لعهدنا لايقبل أن تكون سن الطالب أقل من اثنتى عشرة سنة ليتمكن من حفظ القرآن الكريم قبل الالتحاق، وقد حفظته فى سن العاشرة، وبقيت سنتان حفظت فيهما متون العلم فى الفقه والنحو والتجويد. مع ديوان حافظ إبراهيم الذى اختاره أبى مع قصائد من كتاب (جواهر الأدب) وكان ذا ذيوع بين المتأدبين إذ وصلت طبعاته إلى العشرين، وإذن فقد التحقت بمعهد دمياط الدينى وأنا أفضل علمياً كثيراً من الزملاء، وكان المعهد حينئذ يضم النخبة المختارة

من الأساتذة إذ لم يزد عدد المعاهد فى مصر عن سبعة فقط، وشيخ المعهد هو رجل الإقليم هيبة وعلماً وذيوعاً ، وكان من شأنه أن يمر بالفصول ليستمع الدرس ويناقش المدرسين ويسأل الطلاب، فهو أستاذ الجميع، ولهذا المرور المتصل أثره فى انكباب المدرسين على تحصيل المادة أولاً ثم الاجتهاد فى تذليلها للطالب المبتدئ ثانياً، وإذا كانت مدة الدراسة بالقسم الإبتدائى أربع سنوات فقد كانت كافية لإتقان مواد الفقه والنحو والصرف والسيرة النبوية والتاريخ على أحسن وجه، بحيث كان الطالب الذى يحمل الابتدائية بالأزهر أفضل بكثير ممن يحملون الشهادات العالية منه اليوم، بل ليتهم يصلون إلى نصف مستواه العلمى، وكانت المجلات الدينية والأدبية ذائعة بين الطلاب يقرءونها عن طريق التبادل، بحيث أصبحت مدداً ثقافياً ممتازاً لاينضب له معين، وأذكر أنى قرأت مرة مقالة، بإحدى المجلات الدينية ، تتحدث عن غزوة بدر، فوجدتها لاتخرج فى مضمونها عما جاء بالكتاب المقرر بالمعاهد، فقلت فى نفسى إذا كانت الكتابة بهذه السهولة فلماذا لاأكون كاتباً؟ وكنت قد قرأت حديثاً مسهباً عن كتاب رسول الله إلي هرقل يدعوه إلى الإسلام، وعن أثر الكتاب فى نفسية الإمبراطور الرومانى، واجتماعه ببعض التجار من العرب متسائلاً عن النبى العربى ثم اجتماعه بالبطارقة ليناقشهم فى أمر صاحب هذا الدين، فوقع فى نفسى أن أكتب مقالاً يلخص هذه العناصر، وأن أبعث به إلى مجلة الأزهر، وكان هذا تسرعاً مشتطاً من طالب ناشئ يبعث بمثل هذا التلخيص إلى أكبر مجلة إسلامية! ولكننى فوجئت بعد أسبوعين بمظروف كبير يأتى إلى عن طريق البريد، ففتحته لأجد مقالى مع رد توجيهى من الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى رئيس تحرير مجلة الأزهر، خلاصته أنه سر كثير السرور لاتجاهى الأدبى الحميد، وهو لذلك يرسل ثلاثة من مؤلفاته العلمية هدية لى، ولكنه يلفتنى إلي شيء مهم، هو أن المقال الإسلامى ليس ذكراً للأحداث المدونة، كما جاءت فى صحف التاريخ، ولكن الكاتب المعاصر يتخذ من هذه الأحداث مجالاً للتحليل والتعليل والاستنباط، ليضيف الجديد إلى المتعارف، وذلك لايتأتى إلا بعد مران شاق فى الاطلاع والنظر والمقارنة! قرأت خطاب الأستاذ فتعجبت لتسرعى،

وعلمت أن مقال غزوة بدر لو أرسل إلى مجلة الأزهر ماارتضى الأستاذ وجدى نشره، وكان سرورى بمؤلفاته قد جاوز حد الوصف، فحرصت على تجليدها مع الإهداء، ولكن الزمن لايبقى على شىء!

وأنا أتساءل كم من رؤساء التحرير يصنعون صنيع الأستاذ وجدى؟ مع انتشار المجلات فى كل قطر عربى إلى حد الإتخام؛ ولعل الأوفق أن يكون السؤال: كم من رؤساء التحرير الذين يصدرون المجلات المصقولة الأنيقة المعتزة بالمظهر فحسب من يماثل الأستاذ فريد وجدى!

على أنى لم أحرم فى المرحلة الابتدائية من موقف شد من عضدى، فقد أرسلت تعليقاً أدبياً لمجلة الرسالة على مقال لأستاذ كبير فنشره الأستاذ الزيات بدون إبطاء، نشره بالعدد الصادر فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٠م، وكان للتعليق المتواضع دوى بالمعهد الدينى، حيثُ لفت أنظار الأساتذة إلىَّ، وفيهم من دعانى إلى زيارته بمنزله مشجعا وهو الأستاذ محمد عمر الذى رثاه صديقه الأستاذ طاهر أبوفاشا بقصيدة ممتازة فى ديوان (راهب الليل) فقام بمالم أقم به نحو الراحل العزيز.

انتقلت من دمياط إلى المعهد الثانوى بالزقازيق، فرأيت المجال أرحب وأفسح، لأن طلاب القسم الثانوى إذ ذاك كانوا أدباء كتاباً وشعراء وخطباء، ولهم فى الجمعيات الدينية وأندية الأحزاب السياسية صولات أسبوعية تستدعى الانتباه، وكان من المألوف أن يصدر الطالب الناشئ ديواناً شعرياً يجمع ماقال من القصائد فى المناسبات، والطريقة سهلة مريحة، لأنه يطبع إيصالات تبلغ الخمسمائة. ويفرقها على الطلاب كل إيصال بقرشين أو ثلاثة قروش على الأكثر وفى إحدى مطابع الزقازيق المتواضعة يتم الطبع ورقة ورقة حتى يكتمل الديوان، فيجلد ويوزع على المشتركين، ومن المألوف حينئذ أن ترى فى الصفحات الأخيرة سيلاً من تقريظ الزملاء شعراً ونثراً، تبتدئ بالثناء على (أمير البيان) أو (بلبل العصر) أو (خليفة شوقى) وأكثر من يبرحون الكليات الآن لايقرءون بيتاً شعرياً صحيحاً، فإذا

كان طلبة الجيل الماضى بالمعاهد الثانوية شعراء أتوا بالصحيح المستقيم، فذلك لا يعدم مجال الموازنة بين ماضٍ مزدهر وحاضر جديد.

لم أشأ أن أشارك فى حركة التأليف عن هذا السبيل بل رأيت أن أراسل الصحف بما أنظم، فإذا سهل النشر فهى شهادة لى، وإذا صعب فعلى أن أسعى مجداً متقناً، وقد سهل الله أمر النشر بدون توقع، فقد كنت قرأت كتاباً قيماً تحت عنوان (محمد المثل الكامل) للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك. وهو من كبار رجال التربية والتعليم، فوجدته يفى بما قاله الأستاذ محمد فريد وجدى فى خطابه إلى إذ يتبع كل حادث بالتحليل والاستنباط كما كان المؤلف أسداً هصوراً فى مواجهة مفتريات الخصوم، إذ يدحضها بسيف لايفل وبمنطق لايدفع، ثم قرأت نعيه فى الصحف فتأثرت تأثراً شديداً واندفعت أرثيه تلقائياً بقصيدة مطلعها:

حـــن لليـــث عـرينـــه ... مـــاعسى يُجـدى حنينهْ
كـــلـمـــا ظـــن لقـاءً ... عـــاجلاً خـــابت ظنونـــهْ
كـــم غــدا يســألُ عـنهُ ... أيْـــن ســاقـتــه مـنـونه؟
فـــإذا لـــم يـلـــف رداً ... شــافـيـاً هاجت شجونـه

و بادرتُ بإرسالها لمجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فنشرها الأستاذ صالح عشماوى رحمه الله فور وصولها، وأرسل إلى خطاباً رقيقاً يقول فيه إن صفحةالشعر بالمجلة تشكو الفراغ، وإنه يرحب بشعرى فى الإسلاميات!! وقد تأثرت بالخطاب تأثراً شديداً، وعددته ثروة غالية هبطت علىّ من السماء! ووقفت عند كلمة الإسلاميات أسبح فى محيطها، وهو محيط أثير عزيز بالنسبة إلىّ، فواليت إرسال قصائدى تحت عنوان (على قبر حمزة)، (هلال المحرم)، (إلى مدينة النور)،(جهاد المستضعفين)، (من وحى بدر)، (صرعى المادة)، إلى مايدور هذا المدار، وهو شعر حماسى يقرب من الخطابة! فماذا يقول طالب مبتدئ بالقسم الثانوى غير الشعر الخطابى، وحين جمعت ديوانى فيما بعد تحت عنوان (صدى

الأيام)، و(حنين الليالى) و(حصاد الدمع) أغفلت كل ماقلت فى هذا العهد. ومن العجيب أن أحد الباحثين الفضلاء وهو الدكتور على إسماعيل قد كتب رسالة الدكتوراه عن شعرى، وجعل من همه أن يجمع كل ما قلت فى دراستى الثانوية فى ديوان خاص يلحق بالدراسة العلمية مستدلاً على باكورة حياتى الأدبية بهذه القصائد، وفوجئت بما صنع الدارس، فقلت له هذا الشعر لايمثل اتجاهى، وقد نسيته، فقال: ولكنه التاريخ!

لاأترك الزقازيق بدون أن أسير إلى صداقة أدبية أعتز بها كل الاعتزاز، هى صداقتى للأستاذ إبراهيم الترزى أمين مجمع اللغة العربية بالقاهرة، حيث كنا زميلين بالمعهد، وأنا أتقدمه بسنوات، ولكنه كان منذ التحاقه بالأزهر مشغوفاً بالأدب إلى غير ماحد، وكان يفيء إلى يسر وارف، أتاح له أن يشترى مايوده من كتب الأدب والعلم، ومجلات الفن والثقافة، ولاأطمع فى قراءة كتاب لاأقدر على امتلاكه إلا سارع بشرائه وفرض على أن أقرأه قبل أن يصل إلى مكتبته.

ومما أذكره فى هذا الصدد أنى احتجت إلى دراسة مختارات البارودى، وهى فى عدة أجزاء، فعرض علىّ أن أشتريها بماله وأقرأها وأجلدها، ثم أردها بعد أن أستوعبها وقد تم ذلك. وحين أردت تجليدها، كتبت اسم إبراهيم الترزى ليضعه المجلد بحروف ذهبية، على كعوب المجلدات كالمعتاد، وكتبت اسمى ليتذكر المجلد أنى الذى أحضرت المختارات للتجليد، وسأقوم بتسلمها، وكانت المفاجأة لى حين وجدت المجلد قد كتب اسم إبراهيم الترزى واسمى أيضاً كأنا شريكان فى الشراء، وصحبت المجلدات لإبراهيم وأنا خجل، ولكنه ضحك من أعماقه وقال: أصاب المجلد إذ سجل اشتراكنا فى حيازة المختارات على ارتباط أدبى وثيق، وإذا لم يكن إبراهيم قد أعار المجلدات لبعض أصدقائه فسيقرأ اسمينا من جديد.

مضت أيام الزقازيق، وذهبت إلى القاهرة طالباً بكلية اللغة العربية، ووافق ذلك انتمائى إلى مجلتى الرسالة والثقافة كاتباً وشاعراً، والمجلتان - والرسالة بالذات - مهوى طلاب الأزهر، فانتشر لى بالكلية ذكر حميد، حيث عرفنى الطلاب،

وشجعنى الأساتذة تشجيعاً لم أكن أتوقعه، وأذكر أن أستاذى الكبير أحمد شفيع السيد أستاذ الأدب المعاصر بالكلية كان يكلفنى بأن أعد بعض الدروس وألقيها على زملائى، وهويستمع ناقداً مما دعا بعض الزملاء إلى احتذائى، فأوجد حركة أدبية بين المتنافسين عادت بالأثر الحميد، كما أن عميد الكلية فى بعض سنواتها كان فضيلة الأستاذ الكبير إبراهيم الجبالى، وهو عضو هيئة كبار العلماء، وممن سادلهم ذكر في مجال التفسير القرآنى إذا كان يتولى تحرير باب التفسير بمجلة الأزهر تسع سنوات، فصدر عن ذاتية ممتازة فى الاتجاه، وتعمق دقيق فى الرأى، وسلاسة رائقة فى التعبير، حتى صار التفسير نموذجاً من نماذج البيان، هذا الرجل الكبير كان لايسمح لطالب أن يتأخر يوماً واحداً دون عذر يفحصه شخصياً ويقتنع به، وكان من عادته أن يتقدم إليه الطالب مبدياً عذره، ليتعرض لامتحان علمى فى بعض المقررات، فإن أجاب فعذره مقبول، وإلا فلا سبيل إلى الاعتذار، وقد كتب لى والدى ذات يوم أنه سيحضر إلى القاهرة فى موعد حدده. وعلى أن أكون فى استقباله بباب الحديد، فرأيت أن أذهب للأستاذ معتذراً عن التأخير، وكان مجلسه ساعتئذ عامراً بالأساتذة، فتطلع إلى، وسألنى أن أجلس لأعرب له قول الفرزدق:

وكل رفيقى كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوماهما أخوان

وكان من حظى أن أحيط بالبيت من قبل، فابتسمت وقلت ياسيدى: سأعرب البيت كما تود، ولكننى سأسألك بدورى عن قائله، وعن مناسبته، وعن أحد الأئمة الذى أخطأ فى إعرابه من كبار النحاه، فائتلق وجه الشيخ بالنور، كأنه يستمع إلى بشرى سعيدة، وقال الله أكبر يابنى مادمت تعرف أن ابن هشام قد أخطأ فى إعرابه فى كتاب المغنى فأنت على علم به، أما القائل وأما المناسبة فأنا لاأعرفهما، لقد جئت بآبدة لقد جئت بآبدة!! وكان الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بين السامعين فقال للشيخ: إن الطالب من كتاب مجلة الرسالة، فنهض الرجل من مكانه محيياً وقال: اذهب كما شئت دون اعتذار، لأننى أحرص على حضور المتعلمين لا العلماء!

هذه واحدة، أما الثانية فقد قابلنى بعض الأساتذة، وقال لى إن الشيخ الجبالى يرغب أن تزوره فى منزله فى أى يوم تريد، بعد صلاة العشاء، فقلت: ومن أنا؟ حتى أشغل الرجل الكبير بلقائى؟ فقال: هو الذى طلب فلاتبطئ، وقد سعدت بما سمعت، وسارعت إلى لقاء الرجل، فرأيته يجلس على السجادة بأرض الحجرة وكان قد فرغ من صلاة العشاء فدعانى إلى الجلوس معه، وكأننا فى مسجد، ودار حديث رقيق سجلته فى بعض مقالاتى، وأهم مابه حديثه عن زيارته للهند مبعوثاً على رأس بعثة أزهرية لاستطلاع حالة المنبوذين، وزيارته أكثر من خمسين مدرسة وجمعية هناك، واستقبال البعثة الأزهرية بأسمى مظاهر الترحيب ، وقد عقد لقاءات مع الزعيم الكبير محمد على جناح والشاعر الفيلسوف محمد إقبال، وكان يعانى من مرضه الأخير ، ولكن الشاعر العظيم تحامل على نفسه فتحدث أكثر من ساعتين عن تحامل الإنجليز على المسلمين وانتصارهم للهنادكة، وتقديمهم عليهم فى أرقى الوظائف وقد حدثنا عن غاندى ونهرو بأشياء لم نكن نعلم عنها شيئاً إذ أنها تخالف ماتذيعه الصحف المصرية عن تسامح الزعيمين، وهما عنصريان كبيران، كما صلينا الجمع فى المساجد الكبيرة، وخطبنا المصلين بالعربية التى يعشقونها، لقد كانت جلسة الأستاذ على السجادة، واسترساله فى الحديث عن المسلمين بالهند من أنفس ماسمعت، ولم تكن الباكستان حينئذ قد خرجت إلى الوجود، ولكنها أصبحت كياناً مستقلاً بعد رحلة البعثة الأزهرية بسنوات!

وإذا كنت قد تحدثت عن تواضع الرجل فى مجلسه، فهذا يذكرنى بموقف مماثل مع عميد آخر هو الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة، حيث ذهبتُ مع نفر من طلاب الكلية إلى لقائه، إذ تقررت دراسة اللغات الشرقية بالكلية لأول مرة، ووجدنا اللغة العبرية وحدها هى التى تقرر على الطلاب، فذهبنا إلي شيخ الكلية وهو حينئذ الأستاذ عبد الجليل عيسى، وقلنا له: نريد اللغة الفارسية لأنها لغة إسلامية، والأزهر أولي بها، فقال إن كلية الآداب لم ترسل غير مدرسين للعبرية إذ لايوجد من يشغل الفراغ من أساتذة الفارسية زائداً عن حاجتهم هناك، وإذا استطعتم أن تقنعوا الدكتور عزام بإيفاد مدرس للفارسية، فهذا مايسرنى! فاتفقنا على أن نقابل العميد صباح الغد واتجهنا إلى مكتبه، فقال

لنا سكرتير العميد انتظروا قليلاً، لأنه يصلى الضحى بمكتبه!الله أكبر كأننا لم نترك كلية اللغةالأزهرية إلى كلية الآداب المدنية!! وكان هذا الخبر براعة استهلال جميلة وسرعان ماتم اللقاء، فترك العميد المتواضع مكتبه وجلس معنا يسأل عن مقصدنا فى ابتسام،وقال فى صدق إن زيارة طلاب الأزهر لمكتبى تذكرنى بشبابى فى الأزهر ومدرسة القضاء، وإنه لايوافق على أن تكون الفارسية مزاحمة للعبرية بكلية اللغة بالذات، لأن إسرائيل قد أصبحت حقيقة واقعة، ولابد من أن تجيدوا لغتها، وأن تقرءا صحفها،وأن تسمعوا إذاعتها، ليكون منكم من يدافع عن دينه،ومن تعلم لغة قوم أمن مكرهم، فوجئنا من العميد بمالم نكن نتوقع، ووقع حديثه منا موضع القبول المطلق، واستأذنا شاكرين.

كانت سنوات القاهرة بالنسبة لى وسيلة للتعرف بأدباء كبار سمعت عنهم، وراسلت بعضهم وحفظت آثارهم من قبل، ومن أبرزهم الأستاذ محمد فريد وجدى، والأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ محمود تيمور، وكلهم عَلَمٌ فى بابه، ومنهم من هو عَلَم الأعلام.

أما الأستاذ محمد فريد وجدى، فقد هرعت إلى لقائه بمجلة الأزهر إذ كان رئيساً لتحريرها، فاستقبلنى مشجعاً حين ذكرته بخطابه السابق،وبمؤلفاته التى تفضل بإهدائها، وكنت قد قابلت موظفاً ببريد قرية بالدقهلية تدعى (إخطاب) فعرض على أكثر من عشر رسائل علمية كتبها له الأستاذ وجدى، وكل رسالة تضم مقالة علمية ذات صفحات، فتعجبت أن يخص الأستاذ هذا الموظف برسائل علمية دون أن يشرك معه الجمهور فيذيعها على الناس فى مجلة أو في كتاب! فحانت المناسبة لسؤاله عن هذا الاتجاه،فقال لى الأستاذ فى هدوء باسم، لقد كتبت بمجلة الأزهر عن الإسلام والمسيحية،فأرسل لى هذا الرجل رداً مليئاً بالأخطاء العلمية، وخفت أن أنشره معقباً بدحضه فيحدث بين إخواننا المسيحيين بلبلة لاأريدها، وخشيت أن أهمله فأعد ساكتاً عن تصحيح الخطأ، فرأيت أن أفند أقواله فى خطاب خاص أرسلته إليه ولكنه رد فى إسهاب، وفتح لى مجال التصويب، وكلما رددت أخذ يتعقب،

ووجدت من الأمانة أن أرد حتى بلغت الرسائل عشراً كما ذكرت فعجزت!! عجزت! هكذا قالها الأستاذ المتواضع، قلت: ولكن هذا جهد صامت لايعرفه أحد، فقال الأستاذ: الصامتون كثير، لقد كان الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعى بعد اعتزاله الإفتاء الرسمى لبلوغ المعاش يتلقى الرسائل من شتى بلاد الإسلام فيجيب عنها على الفور، ويرسلها بالبريد خاصة بالمستفتى ، وبعض الإجابات تصل إلى سبع صفحات فأكثر، إذ أتيح لى أن أطلع على إحداها حين اختلف بعض العلماء فى مسألة (التشريح) واستند كاتب ما إلى فتوى الشيخ التى أرسلها إليه فى خطاب خاص، وعرضها علىّ! ولوجمعت فتاوى الشيخ على مدى عشرين عاماً بعد المعاش لبلغت عدة أجزاء! ولن يضيع ثوابها عند الله! كان حديث الرجل يملأ نفسى، وأنا أذكره الآن حين أرى من يتخاصمون على مكافأة جلسة رسمية لم يقولوا فيها شيئاً. ولكنهم حضروا فلابد من أن تملأ الاستمارات!!

أما الأستاذ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر فيما بعد) فقد تشبعت بمقالاته وبحوثه العلمية قبل أن أراه، وكلها قوى محكم، وهو من ذوى الثقافة الشاملة المحيطة بحيث يعد إماماً فى عدة فروع مختلفة كالشريعة والعقيدة وعلوم الأدب والتاريخ، وحين شرفت بلقائه وجدته صامتاً، حديثه همسٌ أوكالهمس، فهو فصيح القلم وليس محدث جمهور، ومن طرائفى معه أنى توجهت مرة إلى مقر جمعية الهداية الإسلامية، وكان رئيساً لها فوجدت معه شيخاً وقوراً، عرفت أنه الأستاذ العلامة الشيخ عبد القادر المغربى، نائب رئيس المجمع العلمى بدمشق، وتلميذ جمال الدين الأفغانى، فاستمعت إلى العالمين الكبيرين يتناقشان فى تفسير حديث الرسول «وإن منكم محدثين منهم عمر بن الخطاب» فأفاض المغربى فى ترجيح كلمة (محدث) على أنها اسم مفعول، ورأى الشيخ الخضر أنها محدث على أنها اسم فاعل، وصال دليل على دليل، وزاحم ترجيح ترجيحاً، وأنا صامت أسمع ولا أستطيع أن أتكلم، فوجدت العلامة المغربى ينظر إلى فى ابتسام ويقول: أى الرأيين ترجح؟ فقلت عجلاً: معاذ الله ياسيدى، أيتناقش الخضر والمغربى فى

الحديث واللغة، وأكون أنا مرجع الترجيح؟ أنا طالبٌ بكلية اللغة، فربت الرجل بيده على كتفى، وقال مبتسماً: من يدرى، قد تكون؟

ومجالس الأستاذ الزيات بالرسالة لاتنسى فقد كانت ندوات حافلة بأئمة من أهل الفضل فى العالم العربى،وبها عرفت الأستاذ ساطع الحصرى والأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى، والأستاذ على الطنطاوى، والأستاذ روفائيل بطى، والأستاذ محمد البشير الإبراهيمى ، وهو من كبار المفكرين فى العالم العربى، والزيات وادع رقيق يستمع،وقلما يشترك فى نقاش،ولكن وجهه فصيح الملامح تعرف من التطلع إليه حكمه على مايسمع قبولاً أو رفضاً، وله أعصاب قوية تتلقى أعنف الآراء المصادمة باحتمال عجيب، دون أن يظهر انقباضاً أو تأففاً، وكنت أحادثه عن بعض مايدور مما يخالف رأيه، فأجده يقول مبتسماً، كلام يقال، وسيزيده النقاش اشتعالاً، ولن يخمده غير الإهمال والسكوت، ومن عادته أن يتسلم المقال فلايقرؤه أمامك، بل يضعه فى المكتب ليرى رأيه المستقل فى هدوء، وهو بعد ذلك يفحصه فى اهتمام، ولاينشر غير الجيد المستطاب.

أما الأستاذ أحمد أمين فمن ذكرياتى معه أنى كتبت بحثاً عن المؤرخ الكبير جرجى زيدان، ودفعت به إلى مجلة الثقافة، وانتظرت قرابة شهر فلم ينشر، فتوجهت للسؤال عنه، فأسعدنى أن يكون الأستاذ الكبير بإدارة المجلة، فسألته فى خشية، فأشرق الابتسام على وجهه وقال لى: أنا أحتفظ بالمقال حتى تأتى لتزيد فيه سطرين، فأنت وازنت بين مسلك الشيخ الخضرى فى التأليف التاريخى ومسلك الأستاذ جورجى زيدان، فقضيت بأن مسلك صاحب الهلال أعم وأوسع دائرة من مسلك الشيخ الخضرى، حيث تحدث زيدان عن سائر نواحى التمدن الحضارى فى الإسلام،واقتصر الخضرى على القليل، وكان عليك أن تضيف إلي قولك أنّ الخضرى كان مقيداً بمنهج دراسى مقرر على طلبة مدرسة القضاء فليس له أن يتسع، أما زيدان فيكتب كما يشاء دون أن يتقيد بمنهج دراسى كالخضرى، وفى استطاعته أن يجارى زيدان فيما انتحاه!! قلت، ولم لم تُعقب الثقافة بسطور

قليلة تكشف هذه الناحية؟ قال الأستاذ : أضف أنت ماسمعت، فذلك أفضل! وكتبت سطرين أضفتهما فى حضرة الأستاذ، وخرجت متعجباً من دقة الرجل، وحرصه على أن يكون الكاتب وحده صاحب الرأى دون أن يفاجأ بزيادة ليست فى باله! أليست هذه هى الأمانة؟!

بقى حديثى عن الأستاذ تيمور، فقد نشرت بمجلة الكتاب (إبريل سنة ١٩٤٨) بحثاً تاريخياً ضافياً عن والده العلامة أحمد تيمور، إذ كان الأستاذ محب الدين الخطيب دائم الحديث عن جهوده الصادقة فى خدمة الإسلام والتراث العربى، فشغفت باتجاهه، وتتبعت مانشر من مؤلفاته، واندفعت إلى كتابة هذا الفصل عنه، وبعد ظهور المقال رأيت طرداً كبيراً يحمل أكثر مؤلفات الأستاذ محمود تيمور، وعلى كل مؤلف إهداء كريم عاطف مع خطاب رقيق يثنى على ماكتبت فى مجلة الكتاب، ويدعونى إلى لقاء الكاتب الفنان، فكان ذلك مصدر سعادة لى. ومن الطريف أن مجلة الكتاب أرسلت لى شيكاً بمبلغ قدره ثلاثة جنيهات، ولم أكن أعرف أن المقال يؤجر وأننى أستحق قليلاً أو كثيراً على ماكتبت، فلما وصلنى الخطاب المرافق بالشيك، أخذت أعرضه على معارفى مباهيا، وأذكر أنى قلت لوالدتى إنى تسلمت ثلاثة جنيهات مكافأة على مقال أدبى، فقالت: اكتب دائماً لتنشر وتكسب! فقلت فى نفسى أما الكتابة الدائمة فسهلة، وأما النشر والكسب فقد أجاب عنهما أبو العلاء حين قال:

فيا دارها بالحزن إن مزارها ... قريبٌ، ولكن دون ذلك أهوال

ولن أترك حديث القاهرة دون أن أشير إلى اتصالى بالدكتور زكى مبارك، وكان فى آخر مراحل حياته الحرجة، هذه المرحلة التى آثر فيها الصراحة الكاشفة، والفاضحة أحياناً، فقد كان يكتب مقالات (الحديث ذو شجون) فى البلاغ على نحو غير المعهود فى أحاديث مجلة الرسالة إذ كان الزيات يحذف من شطحاته مالايليق، أما البلاغ فقد تسعت أنهاره لمهاجمة أدباء كبار وصفهم الدكتور بالانحطاط والجهل والملق، والرجل معذور بينه وبين نفسه إذ رأى أنه لم ينل بعض

مايستحق على حين وصل تلاميذه إلى القمة، وبقى فى السفح، فلجأ إلى الشراب كى ينسى، وفى هذه الآونة كثر ترددى على مجلسه فى جريدة البلاغ، وقد طلبت منه أن يعرفنى بالشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران، إذ لاأجد السبيل إلى لقائه، مع أنى مولع بفنه، وقد حفظت أكثر ديوانه عن هوى شديد، وكان الشاعر الكبير فى أخريات أيامه ينزل بإحدى مستشفيات حلوان ليرد عيناً من عيون الماء قيل أنها تعوق انتشار الداء، فاستجاب الدكتور مبارك لرجائى وصحبنى لزيارة الشاعر الكبير، وقد دُهشت حين وجدته كما قال بشار :

إنَّ فى بردتــى جسماً نــاحــلاً لــو تـوكــأت عـليــه لانــهْدَمْ

على أنه سر كثيرا حين علم أن أذهريا ناشئا مثلى يحفظ ديوانه ويجعله شاعره المفضل.

وقد طلب مني أن أسمعه بعض مانظمت، فقرأت قصيدة ظننتها ستحوز قبوله إذ كانت ممانشرته لى مجلة الرسالة، ولكن الرجل الصادق قال لى بإخلاص، أنت تملك النول الجيد، وعليك أن تبحث عن النسيج الممتاز، فالشاعر لايُعبر عن العواطف العامة قدر مايلتفت إلى الخوافى الكامنة فى مطاوى الأحاسيس، وحين شاهدوجومى، قال: لابأس، أنت مثل الكثيرين من المشهورين، وأريدك أن تكون سباقاً مرفرفاً على هؤلاء! وإذن فقد صدقنى الرجل حين محضنى النصح، ومن يومها بدا لى أن أتئد ولاأتسرع، فكانت جلسة واحدة بألف.

انتهت دراستى بكلية اللغة العربية، وانتقلت إلي معهد التربية العالى بالأسكندرية، ففوجئت بعلوم جديدة لاعهد لى بها، يقوم على تدريسها أساتذة من حملة الدكتوراه من أرقى جامعات الغرب، يشرحون لنا علوم النفس والتربية والاجتماع والصحة النفسية، ولكن هؤلاء الكبار ليسوا في مستوى واحد ففيهم الناقل المردد، المتباهى بالمصطلحات العلمية فى علوم النفس والتربية دون أن يسوقها مساق الدارس المستوعب، وفيهم من خلط جوارحه بالمادة بعد أنْ هضمها هضماً ممتازاً، وأضاف إليها تجاربه الخاصة فى الحياة، ثم ساقها مساق الشراب

الصافى الهنىء وكان الدكتور أحمد عزت راجح منْ هذا الطراز الممتاز حقاً، وكان له تعبيره الأدبى المحكم، فَيَسَّرله أن يَطَّرد بالقول إلي حيث يشاء فى نصوع وإشراق، ومما أذكر أنه طلب منا البحوث التربوية بعد أن أعلن موضوعاتها، وأشار إلى مراجعها، بمكتبة المعهد، وكان من حظى أن أكتب عن موضوع (أثر اللعب فى نمو المدارك لدى التلميذ) فرجعت إلى كل ماتضمه المكتبة من مراجع، ومكثت زمناً ليس بالقصير أُنسق وأعلّل وأنقُل ماأرضاه موافقاً، وما أخالفه معارضاً، حتى استوى البحث كما أريد، ثم فوجئت يوماً فى محاضرة الدكتور بسؤاله عنى، فقال لى فى تجهم: أنت نقلت بحثك نقلاً، ولكنى تعبت في العثور على مصدره، فلم أوفق، من أين سرقته؟ فسكت حائراً، وأنقذنى زميلٌ هو الأستاذ عبد المنصف ناصف، فقال بأعلي صوته: يادكتور إن الأستاذ رجب من كتاب الرسالة والثقافة والصحف الأدبية الرقيقة! ففتح الدكتور فمه دهشاً، وقال: ولذلك لم أعثر على الأصل كما توهمت! ثم مد يده إلى جيبه أمام الطلاب، وتقدم بخمسة جنيهات مكافأةً للمقال، فأنكرت ودهشت، فقال الدكتور، ليس المبلغ من جيبى، ولكنى سأنشره فى صفحة التربية وأنا مسئول عن بحوث علم النفس بها، وأنا الذى أقر المكافأة! هذا حقك يابنى، لن أعطيك مليماً من جيبى، ودوى الطلاب بالتصفيق!

وكانت الإسكندرية تضم نخبة من الأدباء، يكتبون فى الصفحة الأدبية التى تصدر يوم السبت في جريدة البصير، وهى جريدة تهتم بالشئون المالية، وتتحدث عن أعمال البورصة والبنوك والغرفة التجارية، ولكن صحيفة الأدب في يوم السبت ذات صدىً حيٍ بين أدباء الثغر، ويقوم على تحريرها الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب، فحرصت على لقائه، ووجدته على قدر هائل من الثقافة الرفيعة، ومن قبلُ قرأتُ له فصولاً بارعة في الثقافة والرسالة والمقتطف والكتاب، فحدثته عنها، فكانت مفاجأة لى أن أنكر علمه بنشرها فى هذه المجلات، وحكى لى أنه لم يكتب في غيرالبصير، ولكن من تتحدث عن مؤلفاتهم من أمثال بشر فارس، ومحمود تيمور، وحبيب الزحلاوى، وعبد الرحمن بدوى، لايقتنعون بجريدة البصير، فينقلون مقالاتهم إلي صحف مختلفة ، ولم يشأ أن يعاتبهم، فقد أدى

دوره المتواضع فى صحيفته الإقليمية، بدون ضجيج! كم أثر فى نفسى هذا التواضع المجرد عن عوامل الاستعلاء والذيوع! كما أثر فى نفسى أن تحتجب ثمرات هذا العلم الثرى فى أضيق مكان! ثم تأكدت صلتى به حتى لقى ربه فى هدوء صامت كعهده فى الحياة.

إلى هنا انتهى دور التكوين الرسمى فى معاهد التعليم، حيث استقبلت الحياة مدرساً لأستقبل تكويناً آخر ذاتياً، وليس لى أن آخذ من صفحات الهلال أكثر مما أخذت، فحسبى أن أشير إلى الخطوات الأولى، وفى رأيى أنها حددت مسارى المتواضع فى درب الحياة! وياله من درب مديد..

* * *